جماليات البيان في شعر البهاء زهير

ا.م.د. علي صياداني - كلية الآداب، جامعة الشهيد مدنى بأذربيجان.
سعيد هادي پور.(الكاتب المسؤول)، مدرس مساعد بجامعة بيامنور، دهدشت

الملخص

يتغنى البهاء زهير فى أشعاره بمصر و بمواقعها، ويعتزّ بها كموطن من مواطن الجمال والمتعة، فهو إن حض الحجاز بذكرياته و أشواقه، فقد أكثر فى حب مصر و تغنى بجمالها و بالغ وصف طبيعتها. لهذا الأمر استخدم الشاعرالوجوه البلاغية و الجمالية من تشبيه، مجاز، إستعارة و كناية لتحسين أسلوب الكلام و تصوير الموضوع و ترسيم لوحة دقيقة عن عواطفه و تجاربه للمخاطب و برع فيها. و هذه المقالة مجال لدراسة هذه الأساليب و تحليلها البلاغي و الجمالي.

الكلمات الرئيسة: البهاء زهير، البيان، التشبيه، المجاز

Abstract:

Al Baha Zuhair frequently celebrates Eygpt in his poetry as a place of beauty and pleasure. Al Hijaz might be the land of his memories and longings but Eygpt remains first and formost of his love. He sings of its beauty and describes its nature excessively. He used rhetorical figures , like metaphor, similes, imagery, extensively to picturize his subject and portray accurately his emotions and experiences. This paper studies these rhetorical styles and their aesthetic ends.

Key words: Al Baha Zuhair, Rhetorics, Simile, Metaphor

المقدمة:

إن البهاء زهير مصور فنان مبدع؛ يمسك العلم بالقلم كأنه ريشة رسّام يرسم لوحات جميلة من أفكاره وأحاسيسه من المحسوسات والمعنويات مستعيناً بأنماط التصاوير الشعرية عامة والبلاغية منها خاصة وهو يحترز فيها من التكلف والتصنع الشعرية وزخرف القول، فلا تخلو قصيدة من ديوانه إلا و إستخدم فيها عديداً من الصور البلاغية والجمالية لا لزينة عارضت الكلام، وحسنت الصورة الكلية، بل لتقريب المعنى إلى ذهن المخاطب و مساعدته على تجسيم الأشياء والمعنويات.

أما الصورة الجمالية والبلاغية فى أشعاره قائمة على أساس التشبيه، المجاز، الإستعارة، الكناية و... . قد حاولنا فى هذه المقالة توضيح ذلک و القيام بتحليل جماليات الصورة الخيالية و تقديم دورها فى تصوير مشاعره و أفكاره إلى الآخرين.

قبل الدخول إلى البحث، علينا معرفة علم البيان موجزاً و قصدنا من هذا هو أن نتخذ من ذلک مدخلاً إلى دراسة وتحليل وجوه البيانية فى ديوان البهاء زهير دراسة موسعة تعزرها الأمثلة والشواهد.

١- علم البيان

إن علم البيان، علم حادث، ومعناه أن تنظيم البحث فى الأدب، والكلام فى عناصره، وما يسمو به وما ينحطّ، وكان جهداً جديداً ودراسةً لا عهد العرب فى جاهليتهم ولا فى العصر الإسلامى، وأن البيان كان من العلوم التى تولى غراسها المسلمون فى سبيل فهم كتابهم، والذبّ عن قرآنهم، وكان نماؤه بعد ذلک وتشعب مباحثه بتأثيرالدين، وبتوجيه المفكرين من حملته ورجاله.(طبانة، ١٩٥٦م:٩)

هو علم الصورالكلامية المؤثرة، ولاريب أن الصور تختلف فى تأثيرها على النفس، سواء فى ذلک الصور الكلامية أم الصور الحسية، فهنا لک الصورة التى تروقک وتعجبک، فالصورة الجيّدة المؤثرة لابدّ لها من

خيال خصب، وعاطفة مشوبة، وإحساس مرهف، وذهن ثاقب يشترك فيهما المصوِّر والمصوَّرله على سواء؛ كما يصدق هذا على الصورة الحسية، يصدق على الصورة الكلامية كذلك.

فعلم البيان، هو الذى نستطيع بواسطته وبمعرفته أن نؤدى المعنى الواحد الذى نريد تأديته بطرق مختلفة من اللفظ، بعضها أوضع من بعض، وإن شئت فقل بعضها أكثر تأثيراً من بعضها الآخر.(حسن عباس، ١٩٩٩م:٩)

على أية حال يمكننا أن نحصر الحديث عن تحليل بلاغى وجمالى فى ديوان البهاء زهير فى أربعة أبواب : التشبيه، المجاز، الإستعارة، والكناية. والآن نشرع فى تفصيل الكلام عن المبحث الأول من مباحث علم البيان وأعنى به مبحث التشبيه.

٢ـ التشبيه

التشبه صفة الشىء بما قاربه وشاكله من جهة واحدة أم جهات كثيرة، لا من جميع جهاته، لأنه لو ناسبه مناسبة كليّة لكان إيّاه.ألا ترى أن قولهم"الخد كالورد" إنما أرادوا حمرة أوراق الورد وطراوتها، لاما سوى ذلک من صفرة وسطة وخضرة كمائمه.(القيروانى، ١٩٨٨م،ج١، ٢٥٦)

عنى الباحثون بدراسة التشبه عناية واضحة، منها ابو هلال العسكرى يعرّفه بقوله: " التشبيه : الوصف بأن أحد الموصوفين ينوب مناب الآخر بأداة التشبيه، ناب مناب أو لم ينب، وقد جاء فى الشعر وسائر الكلام بغير أداة التشبه، وذلک قولک: "زيد شديد كالأسد" فهذا القول هو الصواب فى العرف وداخل فى محمود المبالغة، وإن لم يكن زيد فى شدته كالأسد فى الحقيقة.(العسكرى، ١٩٥٢م:٢٣٩)

فأما من أنواع التشبيه أكثرما نجد فى ديوانه:

٥ـ٢ـ١ـالتشبيه المركب

والمراد بالتركيب هنا إعتبار أشياء مختلفة وإنتزاع هيئة منها وجعلها مشبهاً أو مشبهاً به، وذلک كقول البهاء زهير فى هذه القصيدة:

لله بُستـــانـى وَمَـا قَضَّيتُ فيــهِ مِـــنَ المَـآرِب
لَهفى علـى زَمَنى بِهِ وَالعَيشُ مُخضرّ الجَوَانِب
فيَرُوقُنــى وَالجَـوّمِنـ ـه ســاكنٌ وَالقَطـرُ ساكِب
وَلَــكم بكَرتُ لَـهُ وَقَد بكَرَت لَهُ غرُّ السّحائِب
وَالطّلُّ فــى أغصَانِـهِ يَحكى عُقوداً فى تَرَائِب
وَتَفَتّحَت أزهَـــــارُهُ فتأرّجَت مِن كلّ جانِب
وَكَـــــأنّمَا آصَالُـــــهُ ذُهَبٌ على الأورَاقِ ذائِب

(فاروق طَباع، ديوان،د.ت: ٢٤)

إن البهاء زهير يستشعر بالراحة والسرور كلما إلتجأ إلى الطبيعة، فيصفها بدقّة ما عنده من خيال واسع، وفكرة محكمة.وهذه القصيدة من أشهر قصائد فقد سار بذكرها كالشعراء العصر العباسى فى أوصاف الطبيعة.

يصف الشاعر على الأيام التى قضاها فى حديقة، وقضى فيها بعض الحاجات التى لم يذكرها ويلتفت أيضاً على زمن سعيد كانت أيامه رغدة العيش، مخضرة الجوانب.ثم يأخذ الشاعر فى وصف الطبيعة المحيطة بالبستان؛ فإذا بالجوّ هادى والمطر تتساقط قطراته بهدوء على الأرض.

ذهب الشاعر إلى البستان صباحاً باكراً، وإذا بالسحب البيضاء قد بكّرت قبله فى المجىء إليه، وقطرات الندى جلست فوق الأغصان بلطف، فإذا هى أشبه ما تكون بالعقود المنظمة فى رقبة الحسناء. وأمّا الأزهار فقد تفتّحت من كل جانب، ورائحة الطيب تنبعث منها فى كل إتجاه، وحول تلک الأزهار تدلت الأثمار فإذا هى أشبه ما تكون بأذناب الثعالب، وهو فى لونه أشبه ما يكون بلون الذهب الذائب على الأوراق.

هذا ما يجعلنا بحق أن نضع شاعرنا من شعراء الوصف الطبيعى البارزين كما شاهدناه فى هذه القصيدة. إن هذه المشهد التى عرضها الشاعر صورة فنية، نبعت من عالم الخيال، وغذاها الفن، وأضفى عليها الشاعرما إستطاع من إبداع وجمال.

نحن نريد أن نتبين جمال الشعر بمبضع التشبيه المركب كما جاء فى البيت الخامس من القصيدة . والمشبه هنا مركب والمشبه به مركب أيضاً، وهذا من دقيق التشبيه ونادره، لأن التشبيه كشف وتحليل للمشبه، بحيث شبه الشاعر فى هذه الصورة قطرات الندى التى تساقط على الأغضان الشجرة بعقود المنظمة فى رقبة الحسناء، فالمشبه هو الطلّ فى أغضان، والمشبه به هو عقود فى ترائب، ومن صفات عقود الجمال. ولكن

الوجه الشبه حسن المنظر فى كل الطرفين. فمن الواضع لقد جاء الشاعر بهذه التصوير على سبيل التشبيه المركب بالمركب.

٥-٢-٢-التشبيه المرسل

وهو ما ذكرت فيه الأداة التشبيه؛ ولقد جاء فى ديوانه بكثير من هذه التشبيه، ونحن نأتى نموذجاً منه:

حَبيبى على الدّنيا إذا غِبتَ وَحشةٌ ... فَيا قَمَرى قُل لى متى أنتَ طالعُ
لقد فَنِيَت رُوحى عَلَيکَ صَبابَةً ... فمَا أنتَ يا روحى العزيزَةَ صانِعُ
سُرورىَ أن تَبقَى بخَيرٍ وَنِعمَةٍ ... وَإنّى منَ الدّنيا بذلِکَ قانِعُ
فما الحُبّ إن ضاعَفتُهُ لَکَ باطِلُ ... وَلا الدّمعُ إن أفنَيتُهُ فيکَ ضائِعُ
وَغَيرُکَ إن وَافَى فَما أنا ناظِرٌ ... إليهِ وَإن نادَى فما أنا سامِعُ
كأنّىَ مُوسَى حينَ ألقَتهُ أُمّهُ ... وَقد حَرِمت قِدماً علَيهِ المَراضِعُ
أظُنّ حَبيبى حالَ عَمّا عَهِدتُهُ ... وَإلاّ فَما عُذرٌ عن الوَصلِ مانِعُ
فقد راحَ غَضباناً وَلى ما رَأيتُهُ ... ثَلاثَةُ أيّامٍ وَذا اليومُ رابِعُ
أرَى قَصدَهُ أن يَقطَعَ الوَصلَ بَينَنا ... وَقد سَلّ سَيفَ اللّحظِ وَالسيفُ قاطِعُ
وَإنّى على هَذا الجَفَاءِ لَصابِرٌ ... لَعَلّ حَبيبى بالرّضَى لى رَاجِعُ
وإن تَتَفَضّل يا رَسُولى فَقُل لَهُ ... مُحبٌّکَ فى ضِيقٍ وَحِلمُکَ وَاسِعُ

(فاروق طباع، ديوان،د.ت:١٩٩)

أول ما يلتفت نطرنا فى هذا الغزل صفة الوفاء لشاعرنا ، وكذلک تحدثنا كتب التاريخ عنه. إن هذا الوفاء جعله أن يحب حبيبه لا غيره.هذه الصفة تؤكد حجازية شاعرنا لطبيعة الحجازية فى شعره.

يقول الشاعر أن الدنيا تكون له الظلام فى عدم حضور حبيبه ويطلب من البدر أى حبيبه إلى متى طلعت؟! وإنى أفدى روحى لک من أجل حبى إليک.يا صديقى العزيز، أرجو من الله أن تبقى بخير وسلامة وهذا يكفينى وقانع بذلک.

وإذا أعرب إليک حباً مضاعفاً فما يقلل حبى إلى الآخرين، وإذا أذرف دموعى لک فما يضيع عنى الدمع أبداً. ثم يبين الشاعر بأنه وفى لحبيبه ولا تحدق نظره إلى غيره ولا تضغى كلام الآخرين، أىّ ما يهمه هو كلام حبيبه.

يشبه الشاعر نفسه بموسى حين أوحى الله إلى أُمّه أن تلقيه فى البحر كى ينجو من القتل على يد فرعون، كما هو مشهور، مؤكداً تعلق قلبه بالحبيب وصدوده عن حبّ سواه كما صدّ موسى عن المراضع.

يتصورالشاعر حال حبيبه مثلما كان موسى، وإن لم تكن هكذا، ليس عذر ومانع لوصل إليه.

والبهاء زهير فقد كان غضباناً لعدم حضور حبيبه وهو متحير منذ ثلاثة أيام فى حال كون اليوم يوم رابع لارأى حبيبه. مع هذا يريد الشاعر أن يقطع صلته مع حبيبه وقد رمى إليه نظرات المحبوب توهماً كالسيف جرد من غمده، فهو تجلد عسى أن يعود إليه المحبوب . يقول الشاعر لرسوله إلى المحبوب إيصال رسالته إليه وضيقه من عدم رؤيته مع أن صبره واسع لهذا الهجران.

نرى أن شاعر يعبر طبيعة حجازيته مع هذا الحب بأن هذه الطبيعة ظاهرة فى شعره وأسلوبه، فهو يأتى ذلک فى غزله لكى تكون لشعره وقع وتأثير فى النفوس. هكذا نرى فى حب الشاعر ما لا نجد فى حب غيره من الشعراء، وأن يردّ كله إلى عوامل البيئة الحجازية التى شبّ وترعرع فيه.

إذا إنتقلنا إلى دراسة الأمور البلاغية وجمالية فى هذا الغزل وقفنا على وجوء الجمالية الكثيرة، ولكن ما نريد أن نبين فى هذا الشعر هو التشبيه المرسل على أنه وجه من وجوه البيانية، بحيث شبه الشاعر فى هذه الصورة نفسه بموسى مؤكداً تعلق قلبه بالحبيب كتعلق موسى بأُمّه لاغيرها. فالمشبه هو نفس الشاعر والمشبه به موسى. لقد حذف وجه الشبه وهو تعلق بالحبيب لاغيره؛ فالتشبيه يكون على سبيل التشبيه المرسل.

٥-٢-٣- التشبيه البليغ

سمى هذا التشبيه بليغاً لأن حذف الأداة ينبىء عن الإتحاد بين المشبه والمشبه به، وحذف وجه الشبه يشيرإلى أن الإتحاد يتناول جميع الوجوه والصفات حتى كان المشبه هو عين المشبه به من غير تفاوت.

المراد من البليغ التشديد والتأكيد فى تقريب المشبه من المشبه به، والمبالغة فى دعوى الإتحاد بين طرفى التشبيه من جميع الوجوه. فعلى هذا كلما تحقق حذف الوجه والأداة تحقق التأكيد والمبالغة فى تقريب المشبه من المشبه به من جميع الجهات، ومتى لم يتحقق حذفهما، أو حذف أحدهما لم يتحقق التأكيد والمبالغة(فاضلى، ١٣٦٥ه.ش:١٩٥).

لقد أختار البهاء زهير هذا الفن في أكثرأشعاره ونأتى نموذجاً منه:

وما أنا ممّن يَستَعيرُ مَدامِعاً ... ليَبكى بها إن بانَ عنهُ خَليلُ
إذا ما جَرَى من جَفنِ غيرىَ أدمعٌ ... جرَت من جُفونى أبحرٌ وَسيولُ
وَأُقسِمُ ما ضَاعَت دُموعى فيكُم ... وَلو أنّ روحى فى الدّموعِ تَسيلُ
سواىَ لأقوالِ الوُشاةِ مُصَدِّقٌ ... وغيرىَ فى عَتبِ الحَبيبِ عَجولُ
سَيَندَمُ بَعدى مَن يَرُومُ قَطيعتى ... ويَذكُرُ قَولى وَالزّمانُ طَويلُ
ويا عاذِلى فى لَوعَتى لَستُ سامعاً ... فكم أنا لاأصغى وَأنتَ تُطيلُ
إذا كانَ مَن أهواهُ عنىَ راضِياً ... فيا رَبِّ لا يرضَى علىّ عَذولُ

(فاروق طباع، ديوان،د.ت:٢٧٩)

فمن الواضع بأن الشاعر ليس ممن يبكي كذباً منذ بعُد عنه الحبيب؛ لأنه وفيٌّ لصديقه يقدمه على نفسه وهو يقارن بين دموعه ودموع الآخرين جاعلاً دموعه أشبه بالبحر والسيل فى وصال إلى الحبيب. ويقسم بأنه لا يذرف دموعه باطلاً وإن كان قُبض روحه فى صبِّ دموعه. ثم لايقبل الذين يصدقون الوشاة والذين يلومون حبيبهم دون علم.

إن الذين يقصدون عدم صلتى إلى المحبوب سيندمون نهاية، كلما يمر عليهم الزمان، وهو يخاطب الذى يعاذله فى الحب : بأنى لا أهتمبما تلومونني ولا أضغى بكم راضين عنى أحبائي وأصدقائى.

يظهرأن البهاء زهير لا يكون محظوظاً فى حسن الإستقبال والتكريم من قِبَل من يزورهم دائماً، ولهذا نرى يندمونه بعض الأشخاص حسداً.

إذا نعود إلى البيت الثانى نرى الشاعر عمد إلى المبالغة والإغراق إدعاءً بأن المشبه هوالمشبه به نفسه، لذلك أهمل الأداة التى تدلّ على أن المشبه أضعف فى وجه الشبه من المشبه به، وأهمل ذكر وجه الشبه الذى ينمُّ عن إشتراك الطرفين من صفة أو صفات دون غيرها، بحيث شبه دمعه بالبحر والسيل وحذف أداة التشبيه و وجه الشبه؛ يسمى البلاغيون هذا النوع بالتشبيه البليغ، وهو مظهر من مظاهر البلاغة والجمال وميدان فسيح لتسابق المجيدين من الشعراء والكتاب.

٥-٢-٤- التشبيه الضمنى

هو ما لم يرد على تلك الصور المعروفة للتشبيه التى سبق ذكرها، ولم يذكر فيه طرفا التشبيه بحيث ينبئان عن المشابهة فى النظرة الأولى. فلم يحصل أحدهما على الآخر، ولم يقع بينهما نسبة، ولم يكن معهما ما يدلّ على عقد التشابه، حتى أن كل منهما جملة مستقلة بمعزل عن الآخرى فى الغالب.(فاضلى، ١٣٦٥ه.ش:٢٠٩)

المهم أن التشبيه الضمنى تشبيه تدل عليه العبارة دلالة ضمنية، وقد جاء هذا النوع من التشبيه الذى تتلاحق فيه الأوصاف صورة متكاملة كما قلنا على طريقة التشبيه الضمنى، وقد أخذ شكلاً محدداً فى الصياغة الشعرية كما نرى فى قول شاعرنا:

لاتَعتِبِ الدّهرَ فى خَطبٍ رَماكَ بِهِ ... إن استَرَدّ فَقدماً طالَ ما وَهَبَا
حاسِبِ زَمانَكَ فى حالَى تَصَرّفِهِ ... تجدهُ أعطاكَ أضعافَ الذى سَلَبَا
وَاللهُ قَد جَعَلَ الأيّامَ دائِرَةً ... فلا تَرَى رَاحَةً تَبقَى وَلا تَعَبَا
وَرَأسُ مالِكَ وَهيَ الرّوحُ قد سلمَت ... لا تأسَفَنّ لشَىءٍ بَعدَهَا ذَهَبَا
ما كُنتَ أوّلَ مَمنُوٍّ بحَادِثَةٍ ... كذا مضَى الدّهرُ لابِدعاً وَلاعَجَبَا
وَرُبّ مالٍ نَمَا مِن بَعدِ مَرزِئَةٍ ... أمَا ترَى الشّمعَ بعدَ القَطّ ملتهِبَا(فاروق طباع، ديوان،د.ت:١٧)

لو دققنا النظر نرى أن هذا الشعرتجربة الشاعر فى حياته ويحدث عنها و يجعلها موضوعاً من موضوعات الهامة فى حياته؛ ولقد كتب الشاعر هذا الشعر إلى بعض أصدقائه وكان قد غرقت سفينته وذهب كل ما فيها.

يدعو الشاعر صاحبه إلى عدم العتب على الدهر إذ رماه بهذا المصيبة، فقد إستردّ هذا الدهر وديعة كان قد وهبها، والدهر فى رأيالشاعر كريم على الإنسان فهو يأخذ منه القليل فى حين يعطيه الكثير، والله قسم الحياة بالعدل بين الراحة والعتب. ثم يدعو شاعر صديقه ألاّتأسفن على شىء فقدته إذا مابقيت لك الحياة فهى أغلى شىء عند الإنسان. ويعزى الشاعرالمصاب، ويطلب منه أن يتجاوز محنته لأنه ليس أول إنسان يُعزّى بفقد عزيز، فالدهر هذا شيمته أن يكون صادقاً لا يترك البدع تسيطر عليه، ولا الكذب، فقد يمنح الله الأنسان المنكوب أضعاف ما خسرإذا ما صبر على مصابه.

جميل فى هذه الأبيات هو بيت آخر يشمل الوعظ والنصيحة وذلك: " ورب مال نما من بعد مرزئة أما ترى الشمع بعد القط ملتهبا".

إننا لم نجد فى هذا البيت المشبه والمشبه به فى صورالتشبيه المعروفة، بل يلمح إليهما فى التركيب. هذا النوع من التشبيه يؤتى ليفيد أن الحكم الذى أُسند إلى المشبه ممكن. والوجه فى هذا البيت مقتبس من القرآن الكريم، حيث يقول سبحانه وتعالى فى سورة الشرح: "إن مع العسر يسرى".

٥-٢-٥- التشبيه المقلوب

هو فى الإصطلاح ما عكس طرفا التشبيه فى متعارف الناس، بأن جعل ما يستعمل فى متعارفهم مشبهاً، مشبهاً به.(الجرجانى، ١٩٤٨م:٢٥٧) التشبيه المقلوب من الناحية النفسية وليدة عدم إشباع رغبة الأدباء وعدم وجدان ضالتهم فى التشبيه العادى، فهو من نتايج عصر الأناقة والترف وغلبة الفن على الذوق، فلهذا نرى أنه فى العصر العباسى أكثر شأناً من حيث الرقة والحسن والجمال.(الجندى، ١٩٥٢م:٢٦٠)

إن هذا التشبيه بما يؤدى من المبالغة والإهتمام بشأن ما هو ناقص فى الواقع وفى متعارف الناس، إستهوى الأدباء والشعراء وأعجبوا به وأنكروا على من لم يسلك مسلكه.(فاضلى، ١٣٦٥ه.ش:٢٢١) لهذا نأتى نموذجاً منه فى شعر البهاء وهو يصف أشواقه العارمة إلى الأحبة:

أأحبابَنا بالرّغمِ منى فِراقُكُم ... وَيا طولَ شَوقى نحوَكم وَ وَلوعى
أطَعتُ الهوَى بالكُرهِ منىَ لا الرّضَا ... وَلو خَيّرُونيكنتُ غيرَ مُطيعِ
حفِظتُ لكم ما تَعهدونَ من الهَوى ... وَلَستُ لسرٍّ بَينَنَا بمُضيعِ
فإن كُنتمُ بعدى سَلَوتم فإنّنى ... سَلَوتُ وَلكن رَاحتى وهُجوعى
سَلوا النّجمَ يخبركم بحالىَ فى الدجى ... وَلاتَسألُوا عَمّا تَجِن ضُلُوعى
قِفوا تَسمعوا من جانبِ الغورِ أنّتى ... فقد أسمعت مَن كانَ غيرَ سَميعِ
وَإن لاحَ بَرقٌ فهوَنارُ صَبابَتى ... وَإن راحَ سَيلٌ فهوَ ماءُ دُمُوعى
وَذا العامَ قالوا أمرَعَ الغَورِكلُّهُ ... وَما كانَ لَولا دَمعَتى بمَريعِ
فيا قمرى مُذ غبتَ أوحشتَ ناظرى ... لعَلّكَ لَيلاً مُؤنِسِى بطُلُوعِ
وما أنا فى العُشّاقِ أوّلَ هالِكٍ ... وَ أوّلَ صَبٍّ بالفِراقِ صَريعِ
وَإن كَتَبَ اللهُ السّلامَةَ إنّنى ... إليكم وَإن طالَ الزّمانُ رُجوعى

(فاروق طباع، ديوان،د.ت:١٩٨)

إننا نرى فى هذا الشعر ما يثير خواطر الشاعر من لهفات وأشواق وميل وحنين، ونرى عنده لوعة الفراق وعذاب الإبتعاد وحسرة الهجر، وفيها يتألق فن الشاعر صادقاً فى تعبيره قوياً فى أسلوبه.

يصف الشاعر أصدقائه بأنهم بعُدوا عنه رغم أنفه، وهذا الهجر يسبّب أن يطول شوقه إلى أحبائه. وهو يقبل هذا البعد كرهاً لا رضاً، وربما لا يحب أن تكون رهين هذا الحب. إنه وفى بعهد كان بينه وبين أحبائه بحيث لايضيع ما يسرونهم.

يخاطب الشاعرأصدقائه قائلاً: إن كنتم نسيتم ما كان بيننا من الصداقة والحب فإنى ماكنت مثلكم، بل إنى نسيت الراحة والنوم. وإذا كنتم لا تصدقوا كلامى سلوا النجوم فى السماء تنبئكم بحالى فى ظلمة الليل، ولاحاجة أن تسألوا ما يخفى قلبى. أطلب منكم أن تصغى حرقة قلبى تُسمع من الأرض المنخفضة بحيث تصغى به الذين لا تكونوا من أحبائى. إذا رأيتم ضوءاً تتلألأ فذلك نور حنينى إليكم وإن جرى سيل فذلك ماء دموعى صُبَّ لكم. على هذا إن خصاب الأرص المنخفضة بسبب دموع أعينى .

يستمر الشاعر بوصف محبوبه ويشبه بقمرقائلاً: منذ بعدت عنى وقعت فى المشاكل و المصائب وظلمت أمامى الدنيا بعدم رؤيتک، لعلک تطلع فى الليل من الليالى وتقرعيناى برؤيتک.إعلم بأننى لست أوّل الذى هلک من أجل فراق الحبيب بين العُشاق. وإن قدر لى سبحانه وتعالى صحةً وسلامةً أسافر إليک وإن طال وصالى إليک مدةً طويلاً.

ما يهمنا فى هذا الشعر من صور البلاغية والجمالية هو تشبيه المقلوب، بأنها جاء فى البيت السابع. نرى الشاعر شبه البرق بنار الحب فى مصرع الأول وشبه السيل بدموع أعينه. فنشاهد هنا أن هذا التشبيه خرج عمّا كان مستقراً فى أنفسنا من أن الشىء يشبه دائماً بما هو أقوى منه فى الوجه الشبه، إذ المألوف أن يقال إن نار الحب يشبه ببرق وماء الدموع يشبه سيل، ولكن عكس وقُلب للمبالغة والإغراق للإدعاء أن وجه الشبه أقوى فى المشبه؛ وهذا التشبيه الذى إستخدمه الشاعر مظهر من مظاهر الإفتنان والإبداع والجمال فى شعره. أما الوجه الشبه فى مصرع الأول هو الإحراق وفى مصرع الثانى هو جريان الماء وشدته.

٥-٢-٦- التشبيه المفصل

هو ما ذكر فيه وجه الشبه أو ملزومه، بحيث إستخدمه الشاعر فى أشعاره كثيراً، ونرى نموجاً منه فى مدحه عن الكامل ناصر الدين...إبن العال أبى بكر بن أيوب ويثنى عليه إنتزاعه ثغر دمياط من الأفرنج:

صَبَرت إلى أن أنزَلَ اللهُ نَصرَهُ لذلکَ قد أحمَدتَ عاقبَةَ الصّبرِ
وَلَيلَةِ غَزوٍ للعَدوّ كأنّهَا بكثرَةِ مَن أردَيتَهُ لَيلَةُ النّحرِ
فَيا لَيلَةً قد شرّفَ اللهُ قدرَهَا وَلا غَزوَ أن سَمّيتُها لَيلةَ القَدرِ
سدَدتَ سَبيلَ البرّ وَالبحرِ عَنهُمُ بسابحَةٍ دُهمٍ وَسابحَةٍ غُرِّ
أساطيلُ ليست فى أساطيرِ مَن مضَى بكلّ غُرابٍ راحَ أفتَکَ من صَقرِ
وجَيشٍ كمثلِ اللّيلِ هَولاً وهَيبَةً وَإن زانَهُ ما فيهِ من أنجُمِ زُهرِ
وكُلِّ جَوادٍ لم يكُن قَطُّ مثلُهُ لآلِ زُهيرٍ لا وَلا لبنى بَدرِ
وباتَت جُنُودُ اللهِ فوقَ ضَوَامرٍ بأوضاحِها تُغنى السُّراةَ عنِ الفَجرِ
فَما زِلتَ حتى أيّدَ اللهُ حِزبَهُ وَأشرَقَ وَجهُ الأرضِ جذلانَ بالنّصرِ
كَفَى اللهُ دِمياطَ المَكارِهَ إنّهَا لَمِن قِبلَةِ الإسلامِ فى مَوضعِ النّحرِ
وما طابَ ماءُ النّيلِ إلاّ لأنّهُ يَحُلّ مَحَلّ الرّيقِ من ذلکَ الثّغرِ

(فاروق طباع، ديوان،د.ت:١٢٣)

يهنئ الشاعر ناصر الدين قائلاً: إنک ما دمت صبرت فى الحرب لقد نصرک الله ولذلک ثنيت عاقبة الصبر والإستقامة. ثم يصف ليلة الحرب أمام جيش العدو بليلة النحر(من مراسم الحج) بسبب إزدياد الذين قتلوا فى ذلک الحرب.

يا ملک ناصر، كبرت ليلة التى قد شرف الله قدرها ومنزلتها، ولا عجب إن سميتها ليلة تكون خيرمن ألف شهر. ربما هذه الليلة صفحة مجيدة فى تاريخنا الإسلامى المجيد.

يمضى الشاعر فى وصف المعركة و يشيد إنتصارات الملک الناصر حيث سد طريق الصحراء والبحر بخيول السود والبيض وله أساطيل ليس مثلهم فى التاريخ وهم الذين يهجمون على العدو بكل سفينة أكثر فتكاً من الطيورالكاسرة إلى صيدهن.؟

ثم يصف الشاعرالجيش الإسلامى وبطولة أفراده وما كان لدمياط من شرف التضحية فى سبيل كلمة الله، يصور لنا أن هذه البطولات أعظم الجهاد فى سبيل الله وفى سبيل الذود عن حق المسلمين. إن جيش المسلمين لهم هيبة كالليل وإن حسن الليل من أجل كواكبه المنيرة، وخيولهم لم يكن مثلهم بين آل زهير وبنى بدر وإن كانوا ضامراً ظاهراً. و يقول الشاعر وصفاً عن الخيول: تضىء هذه الخيول الضامرة للسراة الليل ببياض غرّتها التى أغنت عن ضياء الفجر. فمازلت حتى أيد الله جيش سلطان الملک الناصر و أشرق وجه الأرض بسبب هذا النصرالكبير.

ثم يشيد الشاعر بمكانة دمياط فى مواقف الجهاد المشرف ويبالغ فى تمجيدها ويطلب من الله أن كفى منطقة دمياط من البلايا، لأنها كانت موضع النحرللتضحية قبل الأسلام. وإن كان ماء النيل يعذب حالياً فذلک بسب أن نبع من منطقة دمياط.

فى الواقع أن إنتصارالمسلمين على الفرنجة فى معركة دمياط فرحة هزت المشاعر، وفتقت قرائح الشعراءمنهم البهاء زهير.

يبدو أن روعة فن الشاعرتجلت فى البيت الثانى والسادس وهى ضرب من التشبيه سماه علماء البلاغة " بالتشبيه المفصل" ويفرق بينه وبين تشبيهات الآخر بسبب ذكر أركان التشبيه كله. بحيث شبه الشاعرليلة غزو للعدوباليلة النحر وشبه جيش المسلمين فى هول وهيبة باليل الدجى.

نكتفى بهذا القدر و نطرق إلى مبحث الآخر من وجوه البلاغية والجمالية فى ديوان الشاعر.

٣-المجاز

المجاز من أحسن أساليب البلاغية والجمالية التى تهدى إليها الطبيعة لإيضاع المعنى، إذ به يخرج المعنى متصفاً بصفة حسية، تكاد تعرضه على عيان السامع، لهذا شغفت العرب بإستعمال المجاز لميلها إلى الإتساع فى الكلام، وإلى الدلالة على كثرة معانى الألفاظ، ولما فيه من الدقة فى التعبير، فيحصل للنفس به سرور وأريحية، ولأمر ما كثر فى كلامهم، حتى أتوا فيه بكل معنى رائق، و زينوا به خطبهم وأشعارهم.(الهاشمى، ١٩٩٤م:٢٥٣)

لقد عرف العلماء والأدباء منذ قديم المجاز، وتنبهوا الأهميته ودوره فى التعبير وإلباس المعنى والإحساس الوضوح والفصاحة، فحاموا حوله وسعوا فى تحديده وبيان المراد منه فى الإصطلاح. لعل أرسطو أوّل من أتى بتحديد المجاز فإنه قال: " المجاز نقل إسم يدل على شىء إلى شىء آخر".(بدوى، ١٩٤٣م:٥٨)

إن المجاز كما قال العقاد: " هى الأداة من أدوات التعبير الشعرى، لأنه تشبيهات و أخيلة و صور مستعارة و إشارات ترمز إلى الحقيقة المجردة بالأشكال المحسوسة، وهذه هى العبارة الشعرية فى جوهرها الأصيل".(العقاد، د.ت:٣٧)

إستخدم الشاعر المجاز المرسل والمجاز العقلى فى أشعاره .نشرح كما يلى:

٥-٣-١-المجاز المرسل

إن المجاز المرسل من الوسائل التى تساعد على بلاغة التعبير وعلى جماله، وحسن وقعه فى نفوس المتذوقين، ذلک أن المعنى ينقل من مدلول اللفظة الأصلى أو الوصفى إلى مدلول جديد،(شيخ امين، ١٩٩٢م:١٠٩) وهو أكثر إتساعاً فى شعر الشاعر؛ لأنه يأتى المعانى فى القوالب التى يتصورها خياله، وأشكال التى يصاغها ذوقه. ومعلوم أن هذا العمل مرتبط بما عند الشاعر من تفنن وإبتكار، وقدرة على الربط بين مختلف المعانى والصور. وقوله:

أياديکَ عندى لا يَغُبّ سِجامُها يجودُ إذا ضَنّ الغَمامُ غَمامُها
وكم أُوثرُالتّخفيفَ عنکَ فَلم أجد سِواکَ لأيّامٍ قَليلٍ كِرامُها

(فاروق طباع، ديوان،د.ت:٢٩٧)

نجد فى هذه الأبيات صورة صادقة لحب الشاعر إلى من يحبه، وهو يقول إن نعمک كثيرولا يقل شيئاً عنها بسبب بَذلک إلى الآخرين، و لا مثل سحاب الذى يصب تارة ولا يصب تارة، بل إنک دائم الجود ولا تبخل فى بذل مالک للناس.

إن الحبيب هو الذى يسهل به المشاكل والمصائب الدهر و لايجد الشاعر أحداً غيره يساعده فى إى مرحلة من المراحل الحياة .

إذا تأملنا فى البيت الأول تجلت فيه روعة فن الشاعر ظاهراً المجاز المرسل بعلاقة السببيه، وإستعمل كلمة" إياديک" فى غير معناها الأصلى لعلاقة غير المشابهة مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الأصلى.

وقوله:

أتَتنى أياديکَ التى لا أعُدُّها فأربَت على فَهمى وحَدسى وتَمييزى
وكنتُ أرَى إنّى مَلىءٌ بشُكرِهَا فَما بَرِحَت حتى أرَتنىَ تَعجيزِى(فاروق طباع، ديوان،د.ت:١٧٠)

يصف الشاعر حبيبه بأن أتى من جانبه نعم لايستطيع أن يعدها وذلک بسب إزدياد جوده وإحسانه إلى الناس كلهم. فيقول الشاعر، إنى لاأقدرأن أشكرک من أجل أياديک الكثير لأنک تستزيد من نعمائک علىّ كلما تمر علىّ.

يظهر أن أتى الشاعر جود حبيبه فى أحسن صورة وإستعمل هذا الجود فى الأبيات المعدودة فى لوحة المجاز المرسل . كما نرى فى البيت الأول كلمة " إياديک" يراد بها النعمة فى معنى المجازى على أساس مجاز مرسل بعلاقة السببية.

٥-٣-٢- المجاز العقلى

المجاز العقلى أسلوب عربى فصيح، يدل على سعة العربية، وقدرتها على تجاوز حدود الحقيقة إلى الخيال. ذلک أنه لو كان الإسناد قاصراً على الحقيقة وحدها . إنه يصوغ إسناد العقل أو ما فى معناه ألى غير صاحبه بسبب علاقة ظاهرة أو خفية بين العقل و صاحبه، أو بين المسند والمسند إليه...وذلک إنطلاق فى التعبير الفنى إلى أقصى الحدود. أما القرينة التى تدل على أن الإسناد عقلى مجازى فهى عقلية دائماً، يدركها كل من عنده أدنى درجة من ذوق.(شيخ امين،١٩٩٢م:٩١)

قد برع شاعرنا- كما قلنا آنفاً- فى وصف الخمرة فى مرتبة كبار الشعراء الخمريين ومن قوله:

عَلا حِسُّ النّواعيرِ وَأصوَاتُ الشّحاريرِ
وَقد طابَ لنا وقتٌ صَفَا مِن غَيرِ تكديرِ
فقُم يا ألفَ مَولاىَ أدرِها غَيرَ مأمُورِ
وَخُذها كالدّنانيرِ علىِ رُغمِ الدّنانيرِ
أدِرها من سَنى الصّبحِ تَزِد نُوراً علىِ نُورِ
عُقاراً أصبَحَت مثلَ هَباءٍ غَيرِ مَنثُورِ
بَدَت أحسَنَ من نارٍ رَأتها عَينُ مَقرُورِ

(فاروق طباع، ديوان،د.ت:١٣٧)

إن الشاعر لا يحلو له شرب الخمرة على حسّ النواعير وأصوات الشحارير فى وقت طاب لهم فيه العيش و صفا من أىّ مكروه يكدره. ويسأل الشاعر الساقى أن يقم بواجبه فى سقاية نُزلائه من الشاربين. ثم يطلب من

النديم أن يأخذ الخمرة التى تشبه الدنانير فى شكلها، وأن يحتسيها مع طلوع الفجر حيث يكون الإشراق على إشراق.

نحن نستعرض هذه اللوحة للشاعر، ونشعر كأننا أمام لوحة الأعشى ميمون بن قيس فى قصيدة " وداع هريرة" والتى يتناول الموضوعات التى تناولها البهاء. من ثم نرى الشاعر كيف يصور لنا شرب الخمر ويلتفت نظرنا بتعليم صورة رائعة التى إستخدمها فى البيت الثانى؛ وإذا تأملنا فى هذا البيت نعرف أنه يجر مجراه الحقيقى، لأن الوقت لا يصلح لأن ينسب إليه "طال" ولا شک أن هذه المعرفة لم تتأتى من ناحية اللغة و وضعها، بل الحاكم هنا هو العقل، ولهذا يسمى بالمجاز العقلى بعلاقة الزمانية .فتم تصويرالشاعر حسنه وجماله بفضل هذا المجازالذى دخل فى البيت.

يتبادرإلى أذهاننا أن الشاعرصاحب مذهب فى الخمر، لكننا إذا فتشنا فى شعره نعثر على أنه يقولعلى سبيل الخيال والفكرة والتصوير. إذ نستطيع أن نقول بكل ثقة وإطمئنان، لقد صاغ الأبيات مع الحالة التى تلائم مع حياة الشاعر، وهذا من روعة قصيدته وإعجاب القارىء والسامع بها.

إذا نعود إلى مباحث البلاغية والجمالية يلتفت نظرنا إلى المجاز فى لحمة الأولى ويسند شاعر "الوقت" إلى " طاب" إسناداً مجازياً لعلاقة الزمانية، وهذا ما يسمى فى عرف البلاغيين " بالمجاز العقلى".

وقوله:

تُضِيء لَيالى الدّهرِ منکَ مُنِيرَةً ... وَأيّامُهُ مِن فَرحَةٍ تَتَبَسّمُ
وَيا لَيتَ شِعرى إن قَضَى اللهُ بالنّوَى ... لمَن أبتَغى هذا الكلامَ وَأنظِمُ
نَسيبٌ كَما يَهوَى العَفافُ مُنَزَّهٌ ... وَمَدحٌ كَما تَهوَى المَعالى مُعظَّمُ
وَشَكوَى كَما رَقّ النّسيمُ من الصَّبَا ... وَعَتبٌ كَما إنحَلّ الجُمانُ المُنَظَّمُ
تَأخّرَ عَن وَقتِ الهَنَاءِ لأنّهُ ... لَهُ كُلَّ يَومٍ مِن جَنابِکَ موسِمُ
وَتَعلَمُ أنّى فى زَمانَى واحِدٌ ... وَأنّ كَلامى آخِرٌ مُتَقَدِّمُ

(فاروق طباع، ديوان،د.ت:٣٠١)

يا حبيبى إن أيامى تضىء بنورک وتبتسم فرحة، ويا ليت شعرى إن يكتب الله الفراغ بيننا ، لمن أنظم وأنشد. لذلک شعرى نسيب للعفاف ومدح للمعالى وشكوى للنسيم الرقيق وعتب لإنفصال اللولوء من العقد. فلا أحتاج إلى السرور والهناء و يهب من جانبک علىّ نسيم يوماً، وأنت تعلم ليس لى حبيب فى هذه الدنيا سواک، فكلامى فوق كل كلام وهو فصل الخطاب.

نرى كيف يصور لنا الشاعر صورة جميلة لحبيبه وهو يلتزمه فى المصائب والشدائد الدهر، لأنه يباح له طريق السعادة. و لا يحلو العيش دون الحبيب و هو يساعد الشاعر فى كل أمورحياته. من ثم يبين لنا صورة من صور البلاغية والجمالية وهو المجاز العقلى ذو العلاقة الزمانية وهو ما يكون فى البيت الأول، حيث أسند " تتسم" إلى فاعله على سبيل المجاز العقلى بعلاقة الزمانية.

وقوله:

رَسُولَ الرِّضَا أهلاً وَسهلاً وَمرحَبَا ... حديثُکَ ما أحلاهُ عندى وَأطيَبَا
وَيا مُهدِياً مِمّن أُحبُّ سَلامَهُ ... علَيکَ سَلامُ اللهِ ما هبّتِ الصَّبَا
وَيا مُحسِناً قَد جاءَ من عندِ محسنٍ ... وَيا طَيِّباً أهدَى منَ القولِ طَيّبَا
لقد سرّنى ما قد سمعتُ منَ الرّضَا ... وَقد هَزّنى ذاکَ الحَديثُ وَأطرَبَا
وَزِدنىَ من ذاکَ الحَديثِ لعَلّنى ... أصَدّقُ أمراً كنتُ فيهِ مُكذِّبَا
وَبَشَّرتَ باليَومِ الذى فَيهِ نَلتَقى ... ألا إنّهُ يَومٌ يكونُ لَهُ نَبَا

(فاروق طباع، ديوان،د.ت:٢٩)

يصف شاعر رسول الله و يهنئه قائلاً: إنى أرحب بقدومک وأبارک حديثک الذى يحلو عندى، أنت يهدى الناس إلى الخير والسعادة فى الدنيا والآخرة. أصلى عليک وأهل بيتک مادامت يهب الريح من جانب الشرق، إنت ذو البشاشة والجمال لأنک جاء من جانب الذى له حسن الجمال. من ثم يكون كلامک جميل جداً لأنه كلام الوحى الذى نزل على قلبک جبريل الأمين.

أصبحت مسروراً مادام سمعت رضاء ک وكلما قرأت كلام الوحى هزنى صوتک الجميل، لأنها كالمصباح ضاء لى الطريق. فقل لى كلام الآخر لعلنى أصدق ما أكذب فى ضميرى. أنت بشرت باليوم الذى نلتقى معاًوذلک اليوم يوم الآخرة.

إذا تاملنا فى البيت السادس نرى فيه المجاز العقلى ذا العلاقة الزمانية. فمن الواضع أن إسناد النبأ إلى يوم إسناد إلى غير ماهو له لعلاقة مع قرينة مانعة من إرادة الإسناد الحقيقى.

نحن نكتفى هنا ونطرق إلى مبحث الآخر من المباحث البلاغية والجمالية فى دراستنا وذلک مبحث الإستعارة.

٤- الإستعارة

إن كان فن التشبيه فى علم البيان آية من آيات الإبداع الفنى بين الأدباء والشعراء والمتفننين، أو كان المجاز العقلى أو المرسل وسيلة رائعة لإنطلاق اللغة إلى آفاق بعيدة فى عالم الحقيقة والواقع المحدود، إن الإستعارة قمة الفن البيانى والجمالى، وجوهر الصورة الرائعة، والعنصر الأصيل إلى الإعجاز، والوسيلة الأولى التى يحلق بها الشعراء و أولو الذوق الرفيع إلى سماوات من الإبداع .

بالإستعارة يصورالمعقول كمحسوس، تكاد تلمسه اليد، وتبصره العين، ويشمه الأنف بالإستعارة تتكلم الجمادات، وتتنفس الأحجار، وتسرى فيها آلاء الحياة؛ فترى الطبيعة الصامة الجامدة تغنى وترقص، وتهلو وتلعب كأنها من ذوات الروح والمشاعر والأحاسيس والقلوب النابضة حبّاً وحياةً وإفعالاً.(شيخ امين، ١٩٢م:١١١-١١٢)

عرف عبد القاهر الإستعارة بقوله: " الإستعارة فى الجملة أن يكون لفظ الأصل فى الوضع اللغوى معرفاً تدل الشواهد على أنه إختص به حين وضع، ثم يستعمله الشاعر أو غير الشاعر فى غير ذلک الأصل، وينقله إليه نقلاً غير لازم فيكون هناک كالعارية."(الجرجانى،١٩٤٨: ٢٢)

عرفها السكاكى بقوله: " الإستعارة أن تذكر أحد طرفى التشبيه وتريد به تلک طائفة من تعريفات الإستعارة تبين مفهومها لدى كبار رجال البلاغة العربية فى عصورها المختلفة، وهى وإن إختلفت عبارتها، فإنها تكاد تكون متفقة مضموناً.(القزوينى، ٢٠٠٠م:٣٢٦)

ومن كل التعريفات تتجلى الحقائق التالية بالنسبة للإستعارة:

١- الإستعارة ضرب من المجاز اللغوى علاقته المشابهة دائماً بين المعنى الحقيقى والمعنى المجازى

٢- وهى فى حقيقتها تشبيه حذف أحدى طرفيه

٣- تطلق الإستعارة على إستعمال إسم المشبه به فى المشبه، فيسمى المشبه به مستعار منه، والمشبه مستعارله ولفظ مستعاراً و...(الهاشمى، ١٩٩٤م:١٧٥)

٥-٤-١-الإستعارة المصرحة

وهى ما صرح فيها بلفظ المشبه به، أو ما أستعير فيها لفظ المشبه به للمشبه. وقول البهاء يكون نموذجاً من هذه الإستعارة.

يمدح الشاعر علاء الدين على إبن الأمير شجاع الدين جلدک التقوى وهذه القصيدة من أوليّات مدائحه:

أغُصنَ النّقا لولا القَوَامُ المُهَفهَفُ ... لمَا كانَ يَهواکَ المُعَنّى المُعَنَّفُ

ويا ظَبيُ لَولا أنّ فيکَ مَحاسناً ... حكَينَ الذى أهوَى لمَا كنتَ تُوصَفُ

كلِفتُ بغُصنٍ وَهوَ غُصنٌ مُمَنطَقٌ ... وهِمتُ بظَبيٍ وَهوَ ظَبيٌ مُشَنَّفُ

وَممّا دَهانى أنّهُ من حَيائِه ... أقولُ كليلٌ طَرفُهُ وَهوَ مُرهَفُ

وذلکَ أيضاً مثلُ بُستانِ خَدّه ... به الوَردُ يُسمَى مُضعَفاً وَهوَ مُضعِفُ

فيا ظَبيُ هَلاّ كانَ فيکَ التفاتَةٌ ... وَيا غُصنُ هَلاّ كانَ فيکَ تعَطُّفُ

وَيا حَرَمَ الحُسنِ الذى هوَ آمِنٌ ... وَألبابُنَا مِن حَولِهِ تُتَخَطّفُ

(فاروق طباع، ديوان،د.ت:٢٠٩)

يخاطب الشاعر شجاع الدين منادياً، يا غصن أنت متمايل إلى أى جانب تريد، لولا قدک الضامر لما يحبک ويغرمک المعذب المعنف؛ ويا من هو كالظبى، لولا جمالک و مشابهتک للمحبوب لما يوصفک الناس بالحسن والجمال.

يقول شاعر قائلاً: إننى همت حباً بحبيب شبيه بالغصن وهو غصن لابس النطاق وبالظبى وهو ظبى اللابس الشنف فى أذنيه. وإن أصابتنى الداهية، هذا بسبب عينه المضعف وقده الضامرة. ربما هو كالبستان له خدّ كالورد يسمى المضعف وهو الحبيب الذى يورث عاشقه الضعف والسقم.أيها الحبيب الذى كالحرم الحسن و الجمال وعقولنا تدهش من شدة جماله و روعته.

أما من حيث الصور البلاغية والجمالية فالملاحظ أن الشاعر فى هذا الشعر يكثر من التصوير كما يفعل عادة فى قصائد أخرى...وما يهمنا هنا، هى الإستعارة المصرحة ، كما يكون فى هذه البيت: " ويا ظبى لولا أن فيک محاسناًحكين الذى أهوى لما كنت توصف" نرى فى هذا البيت الإستعارة المصرحة حيث شبه الشاعر شجاع الدين بالظبى ، بجامع الحسن والجمال فى كلا الطرفين على سبيل الإستعارة المصرحة.

فى الواقع يملأ هذا الشعر من الإستعارة المصرحة والمكنية ونحن نكتفى بهذا البيت وما فيه من الإستعارة لكى نبين صورة رائعة من هذا النوع فى ديوان الشاعر.

وقوله مسترجعاً أيامه فى مصر:

أسَفى على زَمَنِ التّلاقى وَالعَيشُ مُتّسعُ النّطاقِ
وَرداءِ عِزٍّ كنتُ أر فُلُ فى حَواشيهِ الرّقاقِ
أيّامُ مِصرٍ لَيتَهَا فُديَت بأيّامى البَوَاقى
وبجانبِ الفُسطاطِ لى قَمَرٌ يَعِزّ لَهُ فِرَاقى
قَمَرٌ شَرِبتُ لَهُ الفِرا قَ المُرَّ بالكأسِ الدِّهاقِ
أحبابَنَا ما ذا لَقِيـ ـتُ مِنَ البُعادِ وَما أُلاقى
لَو تُشرِفُونَ رَأيتُمُ مِن مِصرَ نِيرَانَ إشتِياقى

(فاروق طباع، ديوان،د.ت:٢٣٨)

إن شاعر تأسف على زمن الذى عاش فى مصر ويذكر ذكريات ذلك الأيام فى هذا الشعرعيشاً بالراحة و يلبس الكساء الطويل الرقيق ويمشى متبختراً، فهو يتأسف تلك الأيام حالياً ويفدى باقى عمره فداءاً لتلك الأيام فى مصر.

يظهر أن للشاعركانت حبيبة بجانب مدينة فسطاط فى مصر، ولا يريد أن يتحمل فراقها وهجرها مع أنه يصبر لها أياماً طويلاً لتصل إليه. إن الشاعر يشرح هذا الفراق لأحبائه ويقول لهم، لو تشرفون فى ذلك المكان و رأيتم كيف حنينى إلى الفسطاط بمصر.

إن إشتياق الشاعر بمصر لا يعنى خروجه عن حجازيته، لقد يغنى كثير من الشعراء بموطن غير موطنهم لأنهم لمسوا بلمستهم الفنية ناحية التأنق فى ذلك الجمال، وأحسوا بمباهجه التى إنطبعت على مشاعرهم وإمتلكت عليهم خواطرهم، ولكن ذلك كله لم يغير من نسبة الشاعر إلى موطنه.

هذا هو إشتياق شاعر إلى مصر، وهذا هو شغفه بها، ولا يخرجه كل هذا عن حجازيته لأن الإعجاب لا يعدو أن يكون عن الميل والعاطفة، ولكن الأساس الذى ينبت عليه مواهب الشاعر والنبت الذى نبت منه هو الأثر الذى يبقى مع الشاعر مهما إتجهت عواطفه وسلكت ميوله، وإننا نلمس هذا الأثر فى شعره واضحاً جلياً وفى أغراضه المعروفة من مديح وهجاء و وصف، وما إلى ذلك من أغراض الشعر و إتجاهاته.

إذا أمعنا النظر فى البيت الرابع نرى أن شاعر شبه حبيبه بالقمر بجامع الضوء والتلألأ. ثم إستعير اللفظ الدال على المشبه به "القمر" للمشبه"الحبيب" على سبيل الإستعارة التصريحية الأصلية.

ومن قوله:

يا قَضِيباً من لُجَينِ يا مَليحَ المُقلَتَينِ
كلّ ما يُرضيكَ عندى فَعَلَى رَأسِي وَعَينى
ما لقَلبى منكَ يا بَد رُ سوَى خُفّى حُنَينِ
وَيَرَى الحُسّادُ أنّى منكَ مَلآنُ اليَدَينِ
يا مَليحاً أنَا منهُ بَينَ هجرانٍ وَبَينَ
إن تَبَدّى أو تَوَلّى يا لَها من فُتنَتَينِ
فَهوَ مِن قَبلُ وَمن بَعـ ـدُ مَليحُ الطّلعَتَينِ
هوَ بَدرٌ قَد تَجَلّى نُورُهُ فى المَشرِقَينِ
وكتابٌ سُطّرَ الحُسـ ـنُ بهِ فى صَفحَتَينِ

(فاروق طباع، ديوان،د.ت:٣٣٨)

قد يقترب الشاعر من الوصف لحبيبه فيجسده تمثالاً من الجمال، ثم يعمد إلى أن قد المحبوب يشبه بالغصن وله حسن العينين. ويقبل شاعرإنجاز ما يرضى محبوبه، ربما يكون محبوبه بدر تمام، وإن لم تكنللشاعر أحد غيره.

يقول شاعرقائلاً: إن الحساد يحسدوننى بأننى صاحب الحبيب، فأنت ياحبيبى، ليس فى إمكانى تحمل فراقك وهجرانك، وإن ظهر أو تولى عنى، أكون حائراً من هذه الفتنتين. ثم يديم شاعر إلى وصف مفاتن حبيبه فيقول: إنك جميل الوجه وتتجلى كالبدر فى السماء، وأيضاً أنت كتاب كتب فى صفحتين منه حسنك وجمالك.

هذه صورة جميلة أتحفنا بها الشاعر فى أبهى جلال المحبوب وجماله. ونحن نرى وفاء الشاعرلصديقه يقدمه على نفسه ويشاركه فى كل شيء مهم من حياته. فمن الواضح أن الصورة التى يرسمها الشاعرفى هذه

اللوحة هى مرآة لأحاسيسه ومشاعره، وهى تكشف عن واقعه النفس والخلاجات التى تنطوى عليها ذات الشاعر، فيرى كل الجمال والحسن فى حبيبه ويوصفه كما رأيناه فى نهاية القصيدة.

أتى الشاعر صورة حبيبه فى إطار إستعارة تصريحية تعبيراً عن عظمته ورفعة شأنه فى حبه إلى حبيبه والوفاء به، ونراه فى البيت الأول بحيث شبه قد المحبوب بالغصن بجامع الرشاقة وفى البيت الثالث والثامن شبه صورة حبيبه بالبدر بجامع الجمال والحسن؛ كل هذا يكون على سبيل الإستعارة التصريحية الأصلية.

وقوله:

كَلِفتُ بِشمسٍ لاترَى الشمسُ وَجهَها ... تُراقبُ عنها ألفَ عينٍ وَحاجِبِ
مُمَنَّعَةٍ بالخَيلِ وَالقَومِ وَالقَنَا ... وَتضعُفُ كُتبى عَن زِحامِ الكَتائِبِ
وَلو حمَلَت عنى الرّياحُ تَحيّةً ... لمَا نَفَذَت بَينَ القَنَا وَالقَوَاضِبِ
فَما لىَ منها رَحمَةٌ غَيرَ أنّنى ... أعَلّلُ نَفسى بالأمَانى الكَوَاذِبِ

(فاروق طباع، ديوان،د.ت: ٣٠)

إن للبهاء حبيب يتلألأ كالشمس وهو يصفه قائلاً: إنى أحبالحبيب الذى كالشمس وله عشاق كثيرون بحيث أن الشمس السماء لم تكد تراه بسبب إزدحام العشاق ، ويصونها القوم والفرسان على خيولهم والرماح مع أن تضعف جيشى الذى هى كتبى أمام هجوم كتائب الأخرى للمراقبة عنها. و إن أرادت الرماح إبلاغ سلامى إليها لم تستطع بسبب حماية القنا والسيوف عنها ؛ وإنى لاأرى منها رحمة حالياً إلا أننى أعالج نفسى بالآمال الكاذبة لأصل إليه يوماً من الأيام.

إذا تأملنا فى البيت الأول يظهرأن شبه الشاعر صورة حبيبه وهى المشبه بالشمس وهى المشبه به بجامع جمال والقرينة التى تمنع من إرادة المعنى الحقيقى هى لفظة " كلفت" وتسمى هذه الإستعارة التصريحية الأصلية.

نكتفى بهذا القدر من الإستعارة المصرحة ونطرق إلى مبحث الآخر وهى الإستعارة المكنية لنتم الكلام عن الإستعارة.

٥-٤-٢- الإستعارة المكنية

الإستعارة المكنية عبارة عن إستعارة المشبه به للمشبه، التى لم يدل عليها صراحة بذكر المشبه به وقصد المشبه منه، بل رمز إليها بذكر المشبه وإعادة إسمه للمشبه به.(السكاكى،١٩٣٦م: ٣٦٠) ونحن سنأتى نماذج من هذه الصورة فى أشعار شاعرنا لنكمل حقه فى مجىء للصورة البلاغية والجمالية.

وقوله يمدح مجد الدين محمد إبن إسماعيل إبن اللمطى:

وَمَنَحتُ مجدَ الدّينِ ما ... أنا مِن عُلاهُ مُستَميحُه
مَولىً كأنَّ بَنَانَهُ ... خُلِقت لمَعروفٍ تُتيحُه
وكأنّهُ مِن فِطنَةٍ ... حاشاهُ شِقٌ أو سَطيحُه
وكأنّ حاسِدَ مَجدِهِ ... يحويهِ من غَمٍّ ضَريحُه
ومُبارَكُ الغَدَواتِ لا ... يَبدو لَهُ إلاّ سَنيحُه
وَفَسيحُ باعِ الجُودِ مُنـ ... ـطَلِقُ اللّسانِ بهِ فَصيحُه
يَلقَى الوُفُودَ وَصَدرُهُ ... رَحبٌ إذا سألُوا وَسُوحُه
يروى النّدَى أبَداً فَلا ... يُروَى لَهم إلاّ صَحيحُه
يا سَيّداً إحسانُهُ ... ما غابَ عَمّن يَستَميحُه
كم غُدوَةٍ لَكَ فى النّدى ... و رَواحِ مَكرُمَةٍ تَرُوحُه
وقَديمِ مَجدٍ صُنتُهُ ... بحَديثِ مَجدٍ تَستَبيحُه
مُلّكتَهُ دونَ الوَرَى ... وَالحَقُّ لا يَخفَى وُضُوحُه
لا يَدّعيهِ مُدّعٍ ... لو عاشَ ما قد عاشَ نُوحُه

(فاروق طباع، ديوان،د.ت:٦٥)

ومن حسن آداب المخاطب أن يحسن التصرف فى مخاطبة المُخاطب، والمخَاطب هنا ملك والمُخاطب شاعرإنسان عادى، ولهذا نجد البهاء يدرك هذه الناحية ويطلب من الممدوح أن يستميحه العذر لمخاطبته إيّاه، فهو وإن لم يكن عند منزله لكن محبته له هى التى مَحَت تلك الفوارق بينهما.

هذا المخاطب شخص لم تُخلق أنامله إلا للجود والعطاء وهو ذكى فطن لا يستوى قدره فى هذه الصفات مع الكاهنين: "شقّ" و"سطبحه". ومن عظمته أن حاسديه يحملون حسدهم له إلى قبورهم لشدّة ذلك الحسد. وأما من حيث البلاغة والجمال، فإنه طلق اللسان لا ينطق إلا بما هو مفيد للناس، وأما الكرم فهو فيه لا

يضاهيه أحد، إذ نراه يستقبل الوفود بصدر رحب، ويلبّى كل طلب يُطلب منه مهما كان شأنه، وهو إذا أعطى لا يعطى إلا من خير ماعنده.

ثم يخاطب الشاعر الممدوح بأنه الإنسان الذى إحسانه لا يغيب أبداً عن مَن يستغيث به. ويقول له كم لک فى الندى من جولات غدواً و رواحاً، وأنت أحييت مكارم، كان أباؤک قد أعتادوا عليها، وهذه المكارم ملكتها دون سواک، لأنها حق من حقوقک، والحق لا يخفى على الناس، ولايجرؤ أحد على أن يدّعيه لنفسه ولو عاش ما عاش نوح.

نعود إلى البيت السادس بحيث إستخدم الشاعر الإستعارة المكنية فى "باع الجود" و"منطلق اللسان" وهذا البيت أجمل البيت التى يلتفت نظرنا فى لمحة الأول.

وقوله فى مدح المسعود صلاح الدين أبا المظفر يوسف إبن الكامل محمد بن أبى بكر بن أيوب لما قدم من اليمن سنة ٦٢٠هـ.(١٢٢٣م):

لقد كنتُ أرجو أن أزُورَکَ فى الدّجى ... وَأنّى على ما فاتَنى منکَ نَدمانُ
أُعَلّلُ نَفسِى بالمَواعيدِ وَالمُنَى ... وَقَد مَرّ أزمانٌ لذاکَ وَأزمانُ
أرَى أنّ عزّى مِن سواکَ مَذَلّةٌ ... وَأنّ حَياتى مِن سِواکَ لَحِرمانُ
وَقالَت لىَ الآمالُ باليُمنِ وَالمُنى ... وَما بعُدت أرضُ الكثيبِ وَغُمدانُ
وكنتُ أرَى البرقَ اليَمانىَ مَوهِناً ... فأهتَزّ مِن شَوقى كأنّىَ نَشوَانُ
وَأستَنشِقُ الرّيحَ الجَنُوبى وَأنثَنى ... وَلى أنّةٌ منها كَما أنّ وَلهَانُ

(فاروق طباع، ديوان،د.ت:٣٣٣)

إن الملک المسعود ممن إتصل به الشاعر وقد صرح فى هذه القصيدة آماله وأنه يودّ أن يكون شاعر القصر. حنين الشاعر إلى الملک للوصول إلى آماله يسبب أن يقول: إنى أرجو أن تزورک فى الظلاموقد أندم على ما فاتنى من جانبک. فأعلل نفسى بالآمال وقد مضى الزمن للوصول إلى المنى. وعزتى دون الملكهى الحقارة والخسران.

إن الآمال تكلمنى بالخير والبركة، بأنک تصل إلى الملک المسعود وكلما بعدت من أرض الكثيب وغمدان. كنت أرى برقاً ليلاً تحركت من شوقى، كأنى سكران وهو يلازمنى فى هذا الشوق راقصاً. إنى أشم من هنا رائحة الريح الجنوبى وأتبختر فى المشى كأنى حزين وشديد الحب.

يظهر أن الشاعر قد أخلص الإخلاص كله للملک الصالح فوثق به، وقربه إليه فصار البهاء أكثر الناس إختصاصاً بالملک وإجتماعاً به. وإذا إنتقلنا إلى دراسة الجانب البلاغى والجمالى فى التعبيرفى هذا الأبيات نصل إلى صورة رائعة من الإستعارة. و ذلک فى هذا البيت " وقالت لى الآمال باليمن والمنيوما بعدت أرض الكثيب وغمدان" بحيث شبه الشاعر الآمال بالإنسان ثم حذف المشبه به ورمز للمشبه به المحذوف بشىء من لوازمه وذلک " قالت " ولما كان المشبه به فى هذه الإستعارة مخفيةً، سميت " استعارة مكنية".

وقوله يصف رسالة من صديق ويشبهها بأ زهار الروض:

أكتابٌ مِن فاضِلٍ ... قالَ قَولاً فأسهَبَا
أم أزاهيرُ رَوضَةٍ ... فَتَّقَتَها يَدُ الصَّبَا
قلتُ لَمّا رَأيتُهُ ... مرحَباً ثمّ مَرحَبَا
ثمّ لَمّا قرَأتُهُ ... هَزّ عِطفى تَطَرُّبَا
وَتَوَهّمتُ أنّهُ ... رَدّ لى رَيِّقَ الصِّبَا

(فاروق طباع، ديوان،د.ت:٣٧)

يأخذ الشاعر فى وصف رسالة حبيبه بأنها رسالة من جانب إنسان فاضل وشريف وسطر فيها قولاً فأطال فى كلامه. ربما تلک الرسالة وردٌ من روضةٍ شقتها الريح الشرقية؛ وحينما رأيته قلت به مرحباً بک. ثم فتحت الرسالة وقرأتها وقد أثارت مشاعرى وأصبحت فرحاً شديداً، حتى إنتهى وتوهمت أن صديقى أعاد إلىّ رونق الشباب بإرسال هذه الرسالة الطويلة.

كان الشاعر فناناً فى شعره، يرسم اللوحة مثلما يعبر عنها، ولقد أعجب به كل محب للصورة الجميلة و الرونق الشباب الذى طالما تمنى الناس أن يعود إلى قلوبهم فيفضوا عنهم الحزن والألم .

أما الصورة الإستعارة تكون فى هذا البيت" أم أزاهير روضة فتقتها يد الصبا " بحيث شبه الشاعرالصبا بالإنسان الذى له يد، وحذف المشبه به ، ورمز للمشبه به المحذوف بشى من لوازمه وهو" فتقتها "، وهذا اللون من المجاز سمى بـ" الإستعارة المكنية"

نكتفى بهذا القدر ونذهب إلى حلقة أخرى من رياض شعر شاعرنا وذلک مبحث الكناية.

٥-الكناية

الكناية مظهر من مظاهر البلاغة، وأسلوب من أساليب البيان، وغاية لا يقوى على الوصول إليها إلا كل بليغ متمرس، لَطُفَ طبعه، و صفت قريحته. والسر فى بلاغتها أنها فى صورة كثيرة تعطيك الحقيقة مصحوبة بدليلها، والقضية فى برهانها؛ ولهذا كانت أبلغ من الإفصاح، وأشدّ وقعاً من التصريح، إنها تحمل فى طواياها نفحة من نفحات المبالغة، تضفى على المعنى حسناً وبهاءً، و تزيد الصورة وضوحاً وجلاءً.

ومن أسباب بلاغتها أنها تضع لك المعانى فيصورة المحسّات، وتلك هى خاصة الفنون، فإن المصورإذا رسم لك صورة للأمل أو اليأس بهرك وجعلك ترى ما كنت تعجز عن التعبير عنه واضحاً ملموساً. فإنها تؤدى إليك المعنى الكبير فى قليل من اللفظ، وذلك هو الإيجازالذى يمثل عنصراً من عناصر رفيع التعبير والإعجاز.(شيخ امين، ١٩٩٢م:١٨٣-١٨٦)

وقد عبرعبد القاهر فى الكناية: " الكناية أن يريد المتكلم إثبات معنى من المعانى فلا يذكره باللفظ الموضوع له فى اللغة، ولكن يجىء إلى معنى هو تاليه وردفه فى الوجود فيرى إليه ويجعله دليلاً عليه ".(الجرجانى،١٣٦٦هـ:٤٤)

إن البهاء زهير ميالاً إلى التصريح أكثر من الكناية وفاقاً للعصر الذى عاش فيه ولكنه إستخدم صورة الكناية فى بعض أشعاره وقد جاء ت كناياته فى أغلبها بسيطة غير مركبة ولا معقدة.(على كاظم، ٢٠٠٩: ٧٠) ونحن خرجنا نماذجاً من هذه الصورة من أشعاره بياناً لجماله وبلاغته ونطرق بها حالياً.

إن الشاعر ينشد شعراً ليتحدث به أحبائه، وليرووا للناس قصة حبه وعذابه فى هذا الحب، وحرمانه من متعة الوصال، فقد قال فى هذا:

حَدِّثُوا عن طُولِ لَيلٍ بِتُّهُ هل رَأيتم هل سمعتم هل عُهِد
لا رَعاهُ اللهُ ما أطوَلَهُ تَحبَلُ المرأةُ فيهِ وَتَلِد
ليسَ ما أشكوهُ منهُ واحِداً كلّ شىءٍ مَرَّ بى فيهِ نَكِد

(فاروق طباع، ديوان،د.ت:٩٠)

حق لهذا العاشق أن يضيق بطول هذا العهد وأن يتساء ل فى إستنكار و حرقة ،هل رأوا و هل سمعوا و هل عهدوا مثل هذه القسوة فى الأحباب؟ وإن حسن الصياغة فى هذا الأسلوب، وجمال التعبير فى هذا الوصف لتملك إعجاب القارىء وهو يقف عند هذا الشعور الملتهب...إن الشاعر يتصور شوقاً عنيفاً جباراً وشعوراً ملتهباً بأخلص وأعذب الرجاء...ولكن خلقه يأبى أن يهان وطبيعته تأنف أن تذل لمعشوقه وإن كان وقع هذا الحب فى نفسه شديداً وإن كان صد حبيبه وظلمه قاسياً، فإنه يريد حباً تصان فيه الكرامة وغراماً يسمو فيه الشعور.

فى إمكاننا أن نقول إن الفرق بين شاعرنا وشعراء الآخر هو أن البهاء لايذل لمعشوقه أبداً وهذه الصفة يلازمه دائماً. الكناية فى البيت الثانى، هى " تحبل المرأة فيه وتلد"، والشاعر يريد أن يبين طول الليل المذكور، ولهذا عدل عن التصريح بهذه الصفة إلى الكناية عن الصفة.

وقوله يصف همته العالية فى الحياة:

إلى كم مُقامى فى بلادٍ معاشرٍ تَسَاوَى بها آسَادُهَا وَكِلابُهَا
وَقَلّدتُها الدُّرَّالثّمينَ وَإنَّهُ لعمرُكَ شىءٌ أنكَرَتهُ رِقابُهَا
وَما ضَاقتِ الدّنيا على ذى مروءةٍ وَلا هىَ مَسدُودٌ عَلَيهِ رِحابُهَا
فقَد بشّرتَنى بالسّعادَةِ هِمّتى وَجاءَ منَ العَلياءِ نحوى كتابُهَا

(فاروق طباع، ديوان،د.ت:٢٢)

إن الشاعر يعلن صراحة أنه يتمنى فراق الدنيا لأنها ليست عادلة ، فهى لا تفارق بين الأسود والكلاب، وهذه الدنيا توجّه إليها الشاعر بكل محبة وإحترام و قلّدها أحسن وأجمل ما يملك، ومع هذا فإنها لم تستجب إلى ذلك التقدير لأنها ليست أهلاً له.

مع أن الدنيا رحبة واسعة فلماذا يضيق الإنسان على نفسه، ولاينعتق من عبوديته فليسافر الإنسان فى الأرض، وعندما فكّر الشاعربهذا الأمر أمتلكته السعادة، وأنتابه السرور. والسعادة فى الدنيا فى نظر البهاء قضية نسبية، فبينما يرى الإنسان نفسه سعيداً، يأتيه ما ينغّص عليه حياته.

ومن حيث الصورالبلاغية والجمالية يكون فى البيت الأول كناية عن صفة، وذلك " تساوى بها آسادها وكلابها "كناية عن التمايز بين الأخيار و الأشرارفى الدنيا.

وقوله مهنئاً النصير بقدومه من السفر ويثنى على مكارمه:

صَفحاً لصَرفِ الدهرِ عن هَفَوَاتِهِ إذ كانَ هذا اليَومُ من حَسَنَاتِهِ

يومٌ يُسَطَّرُ فى الكتابِ مكانُهُ كمَكانِ بسمِ اللهِ فى خَتَماتِهِ
يا مُعجِزَ الأيّامِ قَرعَ صَفاتِهِ وَمُجمِّلَ الدّنيا بحُسنِ صِفاتِهِ
بل أحنَفاً فى حِلمِهِ وَثَباتِهِ بل حارِثَ الهَيجاءِ فى وَثَباتِهِ
بل كعبةَ المَعرُوفِ بل كعبَ النَّدى وَ الماءُ يَقسِمُ شُربَهُ بحَصاتِهِ
إن كنتَ غِبتَ عن البلادِ فلم تَغِب عن خاطرى إذا أنتَ من خَطَراتِهِ
لو كنتَ فتّشتَ النّسيمَ وَجَدتَهُ و دعاؤنا يأتيكَ فى طَيّاتِهِ
أحبِب بسَفرتِک التى بقدومِها جَمَعت إلينا الجُودَ بعدَشَتاتِهِ
وأفادَکَ المَلَکانِ زائدَ رِفعَةٍ كالسّيفِ يُصقَلُ بُعد حَدِّ ظُباتِهِ
وكفَى إهتماماً منهما بکَ أن غَداً كلٌّ يريدُکَ أن تكونَ لذاتِهِ
هذا زُهَيرُکَ لا زُهير مُزَينَةٍ وَ أفاکَ، لا هَرِماً على عِلّاتِهِ
دَعهُ وَ حَولِيَّاتِهِ* ثمّ إستَمِع لزُهَيرِعَصرکَ حُسنَ لَيلِيَّاتِهِ
لو أُنشِدَت فى آلِ جَفنَةَ أضرَبوا عن ذِكرِ حَسّانٍ وَعن جَفَناتِهِ

(فاروق طباع، ديوان،د.ت:٤٩-٥٠)

إن الشاعر يصفح للدهركل ما صنعه معه ومع غيره من إساءة و ذلة، لأنه حافظ على الممدوح وأعاده سالماً إلى محبيه، وهذا اليوم فى تاريخ البلاد من حيث الأهمية كالفاتحة بالنسبة للقرآن الكريم. ثم يخاطب الممدوح بمُعجزالأيام فى قرع الخطوب، ومُدهِش الدنيا بحسن صفاته. ثم يصفه بمن إشتهروا بالتاريخ بصفاتهم الحميدة كالأحنف بن قيس فى حلمه، والحارث بن ظالم المرى فى شجاعته، وكعب بن مامة الإيادى فى كرمه.

إن الملک لم يغب يوماً عن بال زهير، بل كان زهير يتذكّره بفكره ومشاعره ولو كشف عمّا فى داخل الريح لرأى أن فى داخلها سلامه له. والشاعر سعيد بقدوم الممدوح لأنه بقدومه إجتمع الشمل وعاد الجود و العطاء؛ وعادت إلى البلاد بعودة الممدوح الرفعة والمجد، كما يعود للسيف بهاؤه بعد صقله.

ومن عظمة الممدوح وكرامته عند الناس أن الجميع يريدون أن يكون لهم، ثم يوجّه الحديث والتخاطب إلى نفسه بأنه زهير ممدوحه وليس زهير إبن أبى سلمى صاحب المعلقات، ويدعو الشاعرالممدوح إلى الإستماع له وليس لِمَن سُمّى على إسمه وهو زهير بن أبى سلمى، وزهير البهاء لو إستمع إليه آل جفنة لتركوا شاعرهم زهير إبن أبى سلمى وإستمعوا إلى البهاء زهير.

إذا تأملنا فى البيت الثانى نرى أن شاعر يستغنى عن التصريح المباشر، لأنه يراه أكثر بلاغة، وأشدّ تأثيراً فى النفوس وذلک " كمكان بسم الله فى ختماته " كناية عن التقديم والأهمية، وهذا نوع آخر من كناية عن صفة.

على أية حال ليس فى وسعنا أن نعرض لكل ما قاله البهاءزهير وأن نأتى كل ما يكون فى شعره من أساليب البلاغية والجمالية، وإنما هو تلخيص مررنا به فى بحثنا لتكميل به ما بدأناه لدراسة هذا الشاعر الذى لم يكن إعجابنا به مقصوراً على حجازيته، بل هى دراسة تشمل كل إتجاه شاعريته بالحسن والجمال، ولنؤدى بذلک للدراسة حقها وللتاريخ أمانته؛ ونحن نقف بهذا القدرفى تحليل جمالى وبلاغى أشعاره وسمو مكانته فى الأدب العربى.

النتيجة

ومن دراستنا لشعر البهاء زهير وجدنا أنه لم يدع وجهاً من الوجوه البلاغية والجمالية إلا وتطرق إليه ونجح فيه، وأهم هذه الوجوه: التشبيه، وهو من أهم عناصر تشكيل الصورة عنده، فإستخدمه بوفرة فى شعره وتأمله فى إستخدام هذه الصورة خطوة هامة لإثبات صلاحيته وسمو مكانته فى الأدب العربى و العالمى. وبعد التشبيه يجىء المجاز فقد رأيناه قليلاً بالنسبة الوجوء الآخر وهويطرق فى هذه الصورة الخيالية إلى المدح، وجولة الخمرة فحاول فيها أن يقلد سابقيه كالأعشى، والوصف البارع أخرج لنا من خلاله لوحات مُشرقة لفنه الأصيل.

ثم كان للإستعارة أيضاً دوراً مهماً فى شعره، لأنه تصور بها أحاسيسه ومشاعره فى الحب الصادق لحبيبه و قد تنوعت فى شعره فجاءت فى نوعيها: التصريحية والمكنية، ولكن المكنية تغلب على أشعاره، مع أن هذه الصورة فى غزله تطالعنا بروعتها وجمالها، و روح تتحدث عن الحب فى عزة وكبرياء...وتمجيد لمعنى الجمال فى صورة محبوبه و بهائه و حسنه.

*هى قصائد التى كان يضع كل واحد منها فى عام

و أما الكناية فى شعره كالإستعارة من حيث قدرته فى تجسيم المعانيو إخراجها صوراً محسوسةتزخر بالحياة والحركة و تبهر العيون منظراً؛ مع أنه إهتم فى شعره إلى كناية عن صفة بالنسبة الكنايات الآخرى.

فهرس المصادر والمراجع

١. القرآن الكريم
٢. إبراهيم جدع، محمد، البهاء زهيرشاعر الحجازي، ط١، ١٤١٥ هـ-١٩٩٥م
٣. بدوى، عبد الرحمن، فن الشعر، دارالنهضة، مصر، ١٩٤٣م
٤. الجرجانى، عبد القاهر، أسرار البلاغة، تحقيق أحمد مصطفى المراغى، مطبعة الإستقامة، القاهرة، ١٣٦٨هـ.١٩٤٨م
٥. الجرجانى، عبد القاهر، دلائل الإعجاز، تصحيح السيد محمد رشيد رضا، ط٣، مطبعة المنار، ١٣٦٦هـ
٦. الجندى، على، فن التشبيه، ج ١، ط١، مكتبة النهضة العربية، مصر، ١٩٥٢م
٧. حسن عباس، فضل، البلاغة- فنونها وأفنانها-، دار الفرقان للنشر والتوزيع، عمان-أردن، ط٣، ١٤١٩هـ.١٩٩٩م
٨. قزوينى، الخطيب، الإيضاح فى علوم البلاغة، تحقيق وتعليق على بوملحم، مكتبة الهلال، بيروت-لبنان، ٢٠٠٠م
٩. ديوان البهاء زهير، داربيروت للطباعة واالنشر، بيروت، ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م
١٠. السكاكى، أبو يعقوب يوسف بن أبى بكر محمد بن على، مفتاح العلوم، ط١، مطبعة مصفى البانى الحلبى، مصر، ١٣٥٦هـ.١٩٣٦م
١١. شيخ أمين، بكرى: البلاغة العربية فى ثوبها الجديد- علم البيان-، الجزء الثانى،ط١، دار العلم للملايين، بيروت-لبنان، ١٩٩٢م
١٢. طبانة، بدوى، البيان العربى ودراسة تاريخية وفنية فى أصول البلاغة العربية، مكتبة الأنجلوالمصرية، ط١، ١٩٥٦م
١٣. العسكرى، أبو هلال الحسن بن عبدالله بن سهل، الصناعتين، تحقيق على محمد البجاوى ومحمد إبراهيم أبو الفضل، ط١، دار أحياء للكتب العربية، ١٣٧١هـ.١٩٥٢م
١٤. على كاظم، على مجلة القادسية فى الأدب والعلوم التربوية، ج٨، العدد ٢، البنيات الأسلوبية للكناية فى شعر البهاء زهير، القادسية، ٢٠٠٩م، ص ٧٠
١٥. فاروق الطباع عمر، ديوان البهاء زهير شرحه وضبط نصوصه، مكتبة دار الأرقم، بيروت-لبنان، دون تاريخ
١٦. فاضلى، محمد، دراسة ونقد فى مسائل بلاغية هامة، مؤسسة المطالعات والتحقيقات الثقافية، ط١، تهران، ١٣٦٥هـ-ش
١٧. محمود العقاد، عباس، اللغة الشاعرة، مكتبة الأنجلو المصرية، مصر، دون تاريخ
١٨. المقريزي، السلوك لمعرفة دول المملوك، ج١، القاهره، ١٩٣١م، ص١١٠
١٩. الهاشمى، أحمد، جواهرالبلاغة- فى المعانى والبيان والبديع-، إشراف صديق محمد جميل، دار الفكر، طبعة مجددة، ١٤١٤هـ.١٩٩٤م عتيق، عبد العزيز ، فى البلاغة العربية- علم البيان-، دارالنهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت- لبنان، دون التاريخ